العدد العشرون - السنة الخامسة عشرة ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

مجلة

كلية المعارف الجامعة

مجلة دورية علمية محكمة جامعة

فكرة النحو البلاغي
في ضوء نظرية النظم للإمام عبد القاهر الجرجاني

الدكتور نصر الدين إبراهيم
أستاذ البلاغة والنقد المشارك بقسم اللغة العربيّة وآدابها
كليّة معارف الوحي والعلوم الإنسانيّة

مقدمة

إن فكرة النحو البلاغي أو البلاغة النحوية أو صلة النحو بالبلاغة، هي فكرة كانت تراود الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتاباته عن البلاغة العربيّة عامة، وخاصة في نظريته المشهورة، (نظرية النظم)، وهذه الفكرة - في رأينا- هي الحل الأنجع لتطوير نظرية النحو التقليدي. فالبلاغة لا تبحث في صحة التركيب الجملي فقط، أو تأويل النص الإعرابي، وإنما تنظر نظرة أعمق وأوسع من ذلك، حيث تتناول معاني النحو، وإدراك العلاقات بين أجزاء النص الأدبي، ومراعاة مقتضى الحال، وأن لكل مقام مقال، بل تبحث في فنّية النص الأدبي، وجمالياته. وهناك فرق شاسع بين تأويل النص الإعرابي، وبين هذه النظرية المتكاملة الأجزاء التي استنبطها الإمام عبد القاهر الجرجاني. فهذه النظرية ساعدت المفسرين في تأويل مُشكل القرآن الكريم،وعملت على إيجاد منهج تحليلي للنص الأدبي، كما قدّمت خدمة جليلة لفهم النص النحوي فهما صحيحا ودقيقا وعميقا. ومهمتناهنا أن نمهد لهذا البحث بمقدمة موجزة، مع إبراز بعض الجوانب المهمة التي توضّح فكرة هذا البحث.

أولا: فكرة النظم

أفاد عبد القاهر الجرجاني كثيرا مما كتبه علماء النحو واللغة في تكوين وبناء فكرة النظم.[1] حيث تجد فكرة النظم عنده تدور حول العلاقة بين الألفاظ والمعاني داخل إطار العبارات، وسمى هذه العلاقات بالنظم.» معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض. والكلم ثلاث: اسم، وفعل، وحرف،

١ الإمام عبد القاهر الجرجاني حياته ومصادر ثقافته/ الدكتور نصر الدين إبراهيم أحمد حسين، ص٢٦، الطبعة الأولى، دار الفتح، المنصورة، سنة ١٩٩٣م.

وللتعلق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام - تعلق اسم باسم وتعلق اسم بفعل وتعلق حرف بهما»[2].

ثم بيّن الحالات التي يتعلق فيها الاسم بالاسم «بأن يكون خبرا عنه أو حالا منه، أو تابعا له صفة أو تأكيدا أو عطف بيان أو بدلا، أو عطفا بحرف. أو بأن يكون الأول ،مضافا إلى الثاني. أو بأن يكون الأول يعمل في الثاني عمل الفعل، ويكون الثاني في حكم الفاعل له أو المفعول، وذلك في اسم الفاعل كقولنا: زيد ضارب أبوه عمرا، وقوله تعالى: «أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها»[3].. واسم المفعول كقولنا: زيد مضروب غلمانه وقوله تعالى: «ذلك يوم مجموع له الناس»[4]،والصفة المشبهة كقولنا: زيد حسن وجهه ،وكريم أصله، وشديد ساعده. والمصدر كقولنا: عجبت من ضرب زيد عمرا، وكقوله تعالى:»أو إطعام في يوم ذي مسغبة، يتيما ذا مقربة»[5]، أو بأن يكون تمييزا قد جلاه منتصبا عن تمام الاسم»[6].

٢ دلائل الإعجاز في علم المعاني، الإمام عبد القاهر الجرجاني، ص١٥، تصحيح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، علق عليه السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت –لبنان، الطبعة الثانية، عام١٤١٩ه –١٩٩٨م.
٣ سورة النساء، ٧٥.
٤ سورة هود، ١٠٣.
٥ سورة البلد، ١٤-١٥.
٦ دلائل الإعجاز في علم المعاني، الإمام عبد القاهر الجرجاني، ص١٦.

وذهب بعد هذا ليشرح كيفية تعلق الاسم بالفعل: «أن يكون فاعلا له أو مفعولا فيكون مصدرا قد انتصب به، كقولك: ضربت ضربا. ويقال له المفعول المطلق. أو مفعولا به كقولك:ضربت زيدا.أو ظرفا مفعولا فيه، زمانا أو مكانا كقولك: خرجت يوم الجمعة، ووقفت أمامك، أو مفعولا معه كقولنا: جاء البرد والطيالسة ..أو مفعولا له كقولنا: جئتك إكراما لك.. وكقوله تعالى: «ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله»[7]،أو بأن يكون من الفعل منزلة المفعول، وذلك في خبر كان وأخواتها، والحال والتمييز المنتصب عن تمام الكلام مثل: طاب زيد نفسا، وحسن وجها وكرم أصلا. ومثله الاسم على الاستثناء كقولك: جاءني القوم إلا زيدا»[8].

وذكر- بعد ذلك - تعلق الحرف بهما،وحدد ذلك في ثلاثة أضرب،الضرب الأول؛ أن يتوسط بين الفعل والاسم، فيكون ذلك في حروف الجر التي من شأنها أن تعدي الأفعال إلى مالا تتعدى إليه بأنفسها من الأسماء، وكذلك سبيل الواو الكائنة بمعنى مع وكذلك حكم إلا في الاستثناء.والضرب الثاني من تعلق الحرف بما يتعلق به العف: وهو أن يدخل الثاني في عمل العامل في الأول، كقولنا:

٧ سورة النساء،٤.
٨ المصدر السابق،ص١٦-١٧.

جاءني زيد وعمرو ورأيت ويدا وعمرا ومررت بزيد وعمرو.والضرب الثالث: تعلق بمجموع الجملة، كتعلق حرف النفي والاستفهام والشرط والجزاء بما يدخل عليه[٩].

ونخلص من ذلك إلى أنه لا يكون كلام من جزء واحد، وأنه لا بد من مسند ومسند إليه وكذلك السبيل في كل الحروف رأيته يدخل على جملة مثل:إن وأخواتها، فلا يمكنك القول: «كأن»، دون ذكر اسمها وخبرها، ولا حرف مثل: «في»، دون ذكر ما يقتضيه الأمر. وكذلك لا يكون كلام من حرف وفعل أصلا، ولا من حرف واسم «إلا في النداء نحو: يا عبد الله. وذلك أيضا إذا حقق الأمر كان كلاما بتقدير الفعل المضمر الذي هو: أعني وأريد وأدعو، ويا دليل عليه وعلى قيام معناه في النفس.فهذه هي الطرق والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض، وهي كما تراها معاني النحو وأحكامه.[١٠]

فهذه هي فكرة النظم عند عبد القاهر الجرجاني شاخصة أمامنا، ولعلنا نشعر أن ثمة ربطا بين هذه الفكرة، وبين دراسات أرسطو البلاغية والنقدية، وخاصة فيما يتعلق بأجزاء القول وأقسامه.

فقد تحدث أرسطو في كتابه "فن الشعر" عن أجزاء القول حيث أقسام الكلمة، والفروق بين بين أقسامها والمقاطع والحروف والأصوات وغيرها من المسائل التي رآها ضرورية في البلاغة[١١].

وهذا يوضح أثر الثقافة اليونانية على ملامح عصر الإمام، وربما أفاد الإمام عبد القاهر الجرجاني، خاصة من كتاب الخطابة حيث تعرض أرسطو لمراعاة الروابط بين الجمل والأسلوب المفصل، والمقطع وحذف أدوات الوصل، والتكرار وغير ذلك.[١٢]

ولم تكن فكرة النظم وفقا على الثقافة اليونانية فقط، بل أن الهنود قد عنوا بهذه الفكرة، فقد أشار الجاحظ في كتابه «البيان والتبين» إلى صحيفة هندية تتحدث عن أصول تتصل بالخطيب وصفاته الأسلوبية في الخطابة، وبعض المواضع البلاغية[١٣]، وهي تتحدث عن بعض الخصائص الأسلوبية. ولكن - في رأينا- أن الإمام عبد القاهر قد استفاد استفادة واضحة من نحاة العرب،

٩ نفس المصدر.

١٠ المصدر السابق، ص١٨.

١١ فن الشعر، أرسطو طاليس، ص٥٥، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت لبنان، ط٢،سنة ١٩٧٣م.

١٢ الخطابة، ص١٨٥، أرسطو طاليس، تحقيق عبد الرحمن بدوي، القاهرة ١٩٥٩م، مطبعة لجنة التأليف.

١٣ البيان والتبين، الجاحظ، ج١، ص٨٨، ٩٢-٩٣، تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبعة القاهرة، ١٣٦٧هـ.

وخاصة سيبويه فقد كانت لهم يد طولى في دراسة خصائص الأسلوب وتحليله،والوقوف على الجملة وما يحدث داخلها، وخارجها. وقد سبق أن أوضحنا- في كتابنا - مدى تأثر عبد القاهر بهؤلاء جميعا[١٤]وإن كان بعض الأدباء يرون - ومنهم الأستاذ الدكتور أحمد مطلوب- أن سيبويه وغيره «لم يسموا هذه البحوث نظما، وإنما قواعد تسير عليها العرب في كلامها أو إنشائها ولا نستطيع أن ننسب إليهم بعد ذلك نظرية النظم».[١٥]

إذا هذه هيالجذور الأولى التي استطاع الإمام عبد القاهر عن طريقها فلسفة نظريته أو فكرته في مجال النظم، ونستطيع أن نقول: إن عبد القاهر الجرجاني قد اكتسب معرفته من كتب التراث العربي،فكتب النحو واللغة والأدب والنقد والبلاغة، وكل ما سبقه من مؤلفات؛ أفاد منه كثيرا في مجال فكرة النظم.

يرى الدكتور محمد زكي العشماوي: «أن نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر قد قضت على كثير من المفاهيم التي سادت تفكيرنا النقدي العربي، قبل الإمام عبد القاهر، وافاضت إفاضة جوهرية تعتبر في مجموعها أساسا صالحا لنقد الشعر بعامة، وبيان إعجاز القرآن بخاصة.. وهذه هي الإضافات:

أولا : توحيد بين اللغة والشعر، أو التقاء فلسفة الفن بفلسفة اللغة.

ثانيا : قضاؤه على ثنائية اللفظ والمعنى.

ثالثا : قضاؤه على الفصل بين التعبير العادي والتعبير المزخرف، أو بين التعبير والجمال.

رابعا : منهجه اللغوي التطبيقي في دراسة الأدب ونقده.[١٦]

وإن كنا نوافق الدكتور العشماوي فيما ذهب إليه، إلا أننا نخالفه في النقطة الأخيرة وهي أن يكون منهج عبد القاهر الجرجاني منهجا لغويا عموما، لأن منهج عبد القاهر الجرجاني يميل إلى منهج النظم الأدبي الذي يربط فنون الأدب داخل إطار فكرة النظم،وهذا يتضح من تحليلاته الأدبية في كتابيه؛ دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة.

هناك ملاحظة أشار إليها عبد القاهر الجرجاني عن النظم، حيث يرى أن النظم

١٤ انظر:الإمام عبد القاهر الجرجاني حياته ومصادر ثقافته ، د. نصر الدين إبراهيم أحمد حسين، ص٢٦- ٤٢.

١٥ عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، الدكتور أحمد مطلوب، ص٢٥ ، بيروت-لبنان، عام ١٣٩٣ه-١٩٧٣م .

١٦ قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، الدكتور محمد زكي العشماوي، ص٣٠٢-٣٠٣، القاهرة، الطبعة الثالثة١٩٧٨م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مطبعة الناشر الجامعي.

ليس الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيفما جاء واتفق، كنظم الكلم، الذي تقتفي فيه آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، بل يجب أن تنساق دلالاتها وتتلاقى معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل، حتى يعلق ببعض ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك، فإذا فعلت هذا كله لا شك تكون قد استكملت فكرة النظم من وجهة نظره.[١٧]

ثانيا: علم النحو

لقد كان الإمام عبد القاهر الجرجاني متمكنا من النحو، بل كان إماما فيه، ولعل كتب التراجم ترجح قولنا هذا.[١٨] فقد كان تلميذ للحسن بن محمد بن عبد الوارث، الفارسي، نزل «جرجان» آنذاك، وابن أخت الشيخ أبي على الفارسي.

إن أعماله في مجال الدراسات النحوية والصرفية والعروضية؛ كالإيجاز والمغني والمقتصد والتكملة والعوامل المائة والجمل والتلخيص والعمدة في التصريف والتذكرة والمفتاح وغيرها تدل على مكانته النحوية العظيمة وتمكنه من هذا العلم الجليل.

١٧ دلائل الإعجاز / عبد القاهر، طبعة المنار، السادسة، ص٤٨ إلى ٥١.

١٨ دمية القصر، الباخرزي، ص١٧- نزهة الباء، ابن الأنباري، ص٣٦٣. عام ١٩٧٨م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مطبعة الناشر الجامعي.

أفاد الإمام عبد القاهر من مجهودات سابقيه في هذا الميدان أمثال «سيبويه» الذي تحدث عن باب المسند والمسند إليه، وباب الأخبار عن النكرة والاستفهام، والأمر والنهي، وتحدث عن أسباب النداء والإيجاز والاختصار، وأشار إلى بعض فنون البيان كالتشبيه والمجاز١٩ كما أفاد من كتاب المقتضب والكامل للإمام المبرد.

وأفاد كثيرا من تلك المناظرة التي دارت بين متى وبن يونس وأبي سعيد السيرافي الذي يقرر فيها أن مهمة النحو لا تقتصر على صحة التركيب من الناحية الإعرابية، وأن النحو من شأنه مراعاة المعاني قبل مراعاة الألفاظ، وذلك لأن معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير، وتوخي الصواب في ذلك، وتجنب الخطأ[٢٠].

لهذا فإننا نجد ابن جني حريصا على مراعاة المعنى قبل الإعراب، فالأولية للمعنى، لأن الإعراب فرع المعنى، فهو يقول: وإن «كان

١٩ الكتاب، سيبويه، ١/٧١- طبعة القاهرة، تحقيق عبد السلام هارون، عام١٩٧٧م، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٠ معجم الأدباء، ٢/١٩٠، ياقوت الحموي، الطبعة الأخيرة، مكتبة البابي الحلبي وشركاه بمصر، راجعته وزارة المعارف العمومية، الدكتور أحمد فريدرفاعي.

تقدير الإعراب مخالفا لتفسير المعنى، تركت تفسير المعنى على ما هو عليه، وصححت طريق الإعراب»[٢١]. ومن هذا المنطلق، نؤكد أن هذه الأفكار قد ساعدت الإمام عبد القاهر الجرجاني كثيرا، وهو أحد علماء النحو الكبار في عصره، فاستطاع عن طريقها أن يعطي المفهوم الواسع لعلم اللغة وأن « يجعل من النحو ذلك العلم الذي يبحث ويشرح العلاقات التي تقيمها اللغة بين الأشياء إن لم يكن النحو نفسه هذه العلاقات. ولذا كان تصوره للنحو تصورا جديدا ارتبط بعلم البلاغة.»[٢٢]

ومن هنا نجد الإمام عبد القاهر يهاجم المفهوم الخاطئ لهذا العلم عند معاصريه وسابقيه، لأنه لم يكن عندهم سوى بحوث لفظية شكلية تتبع الأحوال المختلفة للفظ من رفع ونصب وجر دون النظر إلى ما وراء ذلك. بل أصبحوا لا يدركون أسرار التراكيب ودلالاتها، فغدت غامضة عليهم، لا يستطيعون الكشف عنها، وذلك لأن عنايتهم اتجهت نحو الإعراب الذي كان عنوانا للأدب والثقافة العالية والتهذيب الكامل ٢٣.

٢١ الخصائص لابن جني، ص٢٩٢، تحقيق محمد علي النجار،بيروت، دار الهدى للطباعة والنشر ،الطبعة الثانية،عام ١٩٤٣م.

٢٢ النقد التحليلي عند عبد القاهر، الدكتور أحمد عبد السيد الصاوي،ص١٦١-١٦٢.الإسكندرية، عام ١٩٧٩م،الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٣ تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، الأستاذ أحمد مصطفى المراغي، ص٤٨،٤٧ الطبعة الأولى، سنة ١٩٥٠م.

والإمام عبد القاهر لا يقف عند هذا الحد بل أنه يخاطب الذين زهدوا في النحو وقللوا من شأنه،حتى يريهم خطر النحو ومكانته الرفيعة،وتدرك أهميته بالنسبة لفهم القرآن الكريم، وتفسيره، فالنحو علم له مكانته من بين علوم اللغة العربية،وتدرك ذلك عند ما يقول: «وأما زهدهم في النحو واحتقارهم له وإصغارهم أمره وتهاونهم به: فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدم، وأشبه بأن يكون صدا عن كتاب الله وعن معرفة معانيه ذلك لأنهم لا يجدون بدًّا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه. إذا كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعرابهو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه، والمقياس الذي لا يعرف صحيحا من سقيم حتى يرجع إليه، ولا ينكر ذلك إلا من ينكر حسه، وإلا من غالط في الحقائق نفسه وإذا كان الأمر كذلك فليت شعري ما عذر من تهاون به وزهد فيه، لم ير أن يستسقيه من مصبه، ويأخذه من معدنه، ورضي لنفسه بالنقص والكمال لها معرض، وآثر الغبينة وهو يجد إلى الربح سبيلا؟»[٢٤]

يذهب الإمام عبد القاهر-هنا- إلى توضيح الاختلاف بين معرفتنا لقواعد اللغة وأصولها

٢٤ دلائل الإعجاز ،عبد القاهر ، ص٣٨.

وبين الكشف على المعاني الخفية التي تكمن وراء هذه القواعد والأصول، وهذه ما كان دائما يشير إليها بمعاني النحو، لأن الفهم ليس وقفاً على الإعراب وحركاته فقط، بل لابدّ من معرفة الدلالات الخفية من وراء الأسلوب، وهذا يساعد النحاة في التأويل. ولذلك يرى الصاوي «لا تسهل معرفتنا لكل من أحاط بقواعد اللغة ونحوها وصرفها. وإنما يسهل لمن يراها رؤية عميقة لا تقف عند حدود المنطق والنحو، فليست اللغة مجرد مصطلحات أو قوانين يخضع لها الفكر، وإنما هي رموز تتجسد فيها حالة المتكلم الباطنة بكل ما فيها من إحساس وشعور وفن، ولو صح كون اللغة مجرد علامات اصطلاحية لوقفت عند حدود نقل الفكر وحده، ولما كان هناك داع لأن تعرض المزية في الكلام، ويفضل بعضا على أساس تدرجه في سلم القيم، ولكان ما أتى به القرآن في مقدور البشر ما دام الأمر لا يتعدى مجرد الفكر وحده.»[٢٥]

ومن أجل هذا وذاك تجد الإمام عبد القاهر يذهب إلى أن « جملة الأمر: أنه لا يرى النقص يدخل على صاحبه في ذلك إلا من جهة نقصه في علم اللغة لا يعلم أن ها هنا دقائقا وأسرارا، طريق العلم بها الروية والفكر، ولطائف استقاها العقل، وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هدوا إليها، ودلوا عليها، وكشف لهم عنها ورفعت الحجب بينهم، وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام، ووجب أن يفضل بعضه بعضا، وأن يبعد الشاوي في ذلك، وتمتد الغاية، ويعلوا المرتقى ويعز المطلب، حتى ينتهي الأمر إلى الإعجاز وإلى أن يخرج طوق البشر.»[٢٦]

فالنحو عنده هو المقياس الذي يستقيم الكلام به، والذي عن طريقه كشف النقاب عن الدلالات الخفية والمقاصد المختلفة، حتى أنه ذهب إلى عدم تعلق الفكر بمعاني الكلم مجردة عن معاني النحو، وقام بفلسفة هذه النقطة وتحليلها، بطريقة سهلة تشد انتباه القارئ إليها، ولكن السؤال هل يقصد الإمام من ذلك النحو، الإعراب، التركيب الجملي. أو يقصد معاني النحو؟ فهو يقول: « ومما ينبغي أن يعمله الإنسان ويجعله على ذكر أنه لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم أفرادا، ومجردة من معاني النحو، فلا يقوم في وهم ولا يصح في عقل أن يتفكر متفكر في معنى فعل مكن غير أن يريد أعماله في اسم ولا أن يتفكر في معنى اسم من غير أن يريد أعمال فعل فيه، وجعله فاعلا له أو مفعولا. أو يريد منه حكما سوى ذلك من الأحكام مثل أن يريد

٢٥ النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني، الدكتور أحمد عبد السيد الصاوي، ص١٦٣.

٢٦ دلائل الإعجاز، عبد القاهر ص٢١ -٢٢.

جعله مبتدأ أو خبرا أو صفة أو حالا أو ما شاكل ذلك. وإن أردت أن ترى ذلك عيانا فاعمد أي كلام شئت وأزل أجزاءه عن مواضعها وضعا يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها فقل في:

قفا من ذكرى حبيب ومنزل

من نبك قفا حبيب ذكرى منزل. ثم انظر هل يتعلق منك فكر بمعنى كلمة منها؟».[٢٧]

ولا يكتفي الإمام عبد القاهر بهذا النص، بل أنه يتعمق في أغوار هذه الفكرة بطريقة تذوقية مبدعة، فهو يشرح ويحلل ويستشهد، ويكشف عما التبس على القارئ، فيواصل شرحه قائلا: «واعلم أني لست أقول إن الفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة أصلا، ولكني أقول إنه لا يتعلق بها مجردة من معاني النحو ومنطوقا بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معاني النحو وتوخيها فيها كالذي أريتك، وإلا فإنك إذا فكرت في الفعلين أو الاسمين تريد أن تخبر بأحدهما عن الشيء أيهما أولى أن تخبر به عنه وأشبه بغرضك مثل أن تنظر أيهما أمدح وأذم وفكرت في الشيئين أيهما أشبه به كنت فكرت في معاني أنفس الكلم، إلا أن فكرك ذلك لهم لم يكن إلا من بعد أن توخيت فيها معنى من معاني النحو، وهو، إن أردت جعل الاسم الذي فكرت فيه خبرا عن شيء أردت في مدحا أو ذما أو تشبيها أو غير ذلك من الأغراض ولم تجيء إلى فعل أو اسم ففكرت فيه فردا ومن غير أن كان لك قصد أن تجعله خبرا فاعرف ذلك. وإن أردت مثالا فخذ بيت شعر:

كأن مثار النقع فوق رءوسنا

وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وانظر هل يتصور أن يكون بشار قد أخطر معاني هذه الكلم بباله أفرادا عارية من معاني النحو التي تراها فيها، وأن يكون قد وقع (كأن) في نفسه من غير أن يكون قصد إيقاع التشبيه منه على شيء، وأن يكون فكر في (مثار النقع) من غير أن يكون أراد إضافة الأول إلى الثاني، وفكر في (فوق رءوسنا) من غير أن يكون قد أراد أن يضف (فوق) إلى الرءوس، وفي الأسياف من دون أن يكون أراد عطفها بالواو على (مثار) وفي الواو من دون أن يكون أراد العطف بها، وأن يكون كذلك فكر في (الليل) من دون أن يكون أراد أن يجعله خبرا لكأن، وفي (تهاوى كواكبه) من دون أن يكون أن يجعل تهاوى فعلا للكواكب ثم يجعل الجملة صفة لليل ليتم الذي أراد من التشبيه؟ أم لم تخطر هذه الأشياء بباله إلا مرادا فيها هذه الأحكام والمعاني التي تراها فيها؟ وليت شعري كيف يتصور وقوع منك إلى معنى كلمة من دون أن تريد

٢٧ المصدر السابق، ص٢٦١ - ٢٦٢.

تعليقها بمعنى كلمة أخرى[٢٨]».ويقصدالإمام عبدالقاهر بذلك معاني الكلم، وأنت تفهم القارئوتعلم السامع بها شيئا لا يعلمه،وليس القصد أن تعلم السامع معاني الكلم المرادة التي تكلمه بها، بل تلك الدلالات التي تحيط بالتراكيب، وأن تكون تلك التراكيب متفقة مع قواعد ومقاييس علم النحو.

فحينما نطلع على هذه النصوص، نجد أنفسنا أمام عالم جدير بالاهتمام، واتجاه جديد في فهم الإبداع، فالنحو تطور عنده، فأصبح نحو بلاغيا،ولم يعد مجرد قواعد منطقية جدلية شاقة وجافة، بل أصبح نوعا من الإبداع النفني، والفن الإبداعي، وضربا من الفن البلاغي الرفيع. «ونحن إذا عدنا إلى تصور عبد القاهر للنحو، وجدنا أن فهمه له كان فهما متطورا أحل اللغة محلها اللائق بها، فالنحو عنده ليس هذا العلم الذي يبحث في ضبط أواخر الكلمات و لا هو جملة المصطلحات والقواعد والقوانين الجافة ولا هو هذا العلم الذي لا مكان له في البلاغة ولا صلة له بالفن، وإنما النحو عنده هو الذي يكشف لنا عن المعاني، ولكن أي معان يكشف عنها...؟ إنها عنده الألوان النفسية المتباينة التي ندركها من علاقات الكلام بعضه ببعض، ومن استخدام الشاعر للغة استخداما يخلق من ارتباطات الألفاظ بعضها ببعض نسيجا حيّا متشعبا من الصور والمشاعر والخيال».[٢٩]

اتجه الإمام عبد القاهر ـ كما ترى ـ بالنحو اتجاها جديدا، يزخر بالحيوية، وعمق الفكرة، بحيث جعل موضوعاته جديدة، وكشف بواسطة ذهنه الوقاد، وقلمه البليغ، خفايا لم ينتبه إليها سابقوه ومعاصروه، فأعاد للنحو مكانته وهيبته، وأضفى عليه الكثير من روحه، وهذا ما لا نجده عند سابقيه ومعاصريه، بل ومن جاء بعده - ومن هذا المنطلق، فإننا نستطيع أن نقولها واضحة، إننا إذا أردنا إحياء النحو العربي فلنرجع لمؤلفات الإمام عبد القاهر الجرجاني ندرسها، نتفهمها، ونعيها.

ذكر الدكتور أحمد أحمد بدوي مآخذ على عبد القاهر الجرجاني لا نوافقه فيها، فهو يقول:

«وإذا كان لنا ما نأخذه على عبد القاهر، فذلك هو أنه لم يقف عند معاني النحو يبين أسرارها ، ووجوه جمالها، في معظم ما عرضه من الأمثلة.»[٣٠] ونحن في الواقع لا نرى

٢٨ المصدر السابق، ص٢٦٢ - ٢٦٣.

٢٩ النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني، د. الصاوي، ص١٦٢.

٣٠ عبد القاهر الجرجاني جهوده في البلاغة العربية/ د. أحمد أحمد بدوي، ص١١٦ - ١١٧، القاهرة، الناشر مكتبة مصر، الطبعة الثانية، مطابعكوستا تسوماس وشركاته.

هذا الرأي، لأن الإمام عبد القاهر الجرجاني قدّم نماذج وأمثلة كثيرة ومتنوعة،وقد وقف فيها طويلا يحلل ويشرح ويمثل من القرآن الكريم والشعر العربي، بل أن هذه سمة ميّزة الإمام عبد القاهر عن معاصريه، إذ أنه لايقدم النظريات فقط، بل تتبعها التطبيقات والشروح التفصيليّة العميقة. ولكي نوضح هذه النقطة، دعنا نأخذ مثالا عن الإمام عبد القاهر، وهو يتحدث عن بيان مزية النظم في مراعاة النحو حيث يقول: «إن أردت أظهر أمراً في هذا المعنى فانظر إلى قول إبراهيم بن العباس:

فلو إذ نبا دهر وأنكر صاحب

وسلط أعداء وغاب نصير

تكون من الأهواز داري بنجوة

ولكن مقادير جرت وأمور

وإني لأرجو بعد هذا محمدً

لأفضل ما يرجى أخٌ ووزير

فإنك ترى ما ترى من الرونق والطلاوة، ومن الحسن والحلاوة، ثم تتفقد السبب في ذلك فتجده إنما كان من أجل تقديمه الظرف الذي هو «إذ نبا» على عامله الذي هو «تكون» وإن لم يقل: فلو تكون عن الأهواز داري بنجوة إذ نبا دهر. ثم إن قال «تكون» ولم يقل «كان» ثم أن نكّر الدهر، ولم يقل «فلو إذ نبا الدهر» ثم إن ساق هذا التنكير في جميع ما أتي به من بعد. ثم إن قال « وأنكر صاحب» ولم يقل: وأنكرت صاحبا، لا نرى في البيتين الأولين شيئا غير الذي عددته لك تجعله حسنا في النظم، وكله من معاني النحو كما ترى. وهكذا السبيل أبدا في كل حسن ومزاية رأيتهما قد نسبا إلى النظم، وفضل وشرف حيل فيهما عليه.[٣١]

يتضح -من هذا- صحة ما ذهبنا إليه، بل إننا نجد هذه النقطة تتضح جليا عندما يعرض لك الإمام عبد القاهر الجرجاني- في كتابه دلائل الإعجاز- لأبواب التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتعريف والتنكير، وغيرها، فالتذوق هنا يعلو وتسمو درجته، حيث يوضح لك ويشرح تلك الدلالات الخفية، وأسرار الجمال وإنها كيف تكون،وإنها تنبع من توخي معاني النحو، والدلالات الخفية الكامنة من ورائه وذلك في تصوير أدبي وبلاغي فريد، وهذا مما جعل الدكتور غنيمى هلال يصرّح قائلا: «وبهذا لم تعد قواعد النحو لدى الإمام عبد القاهر جافة مقصورة على الإعراب كعهدنا بها، وإنما أضحت من وسائل التصوير الفني، به في البراعة، ويتفاوت في التسابق فيه الشعراء»[٣٢]

٣١ الدلائل ، ص، ٧٠ - ٧١.

٣٢ النقد الأدبي الحديث/ د. محمد غنيمي هلال ص٢٧٨، دار المعارف والعودة، بيروت، مطابع المتنبي، عام ١٩٧٣م.

هكذا أظهر الإمام عبد القاهر الجرجاني مكانة النحو، وعلو شأنه، وكشف النقاب عن خباياه، وجلى السعة في معانيه، أي أنه جعل دائرة النحو تتسع وتكبر حيث أضاف إليه ما يدرس الآن صمنا لعلم المعاني، نحو التعريف والتنكير، والحذف، والتقديم والتأخير، والإظهار والإضمار والفصل والوصل وغير هذا وذلك. وهنا يكون عبد القاهر الجرجاني، قد كشف النقاب عن طريقة سهلة ممتنعة مبسطة، لإحياء النحو العربي وتذوقه كما يجب أن يكون.

ثالثا: فكرة إدراك العلاقات

هكذا ترى أن صلة البلاغة بالنحو عند الإمام عبد القاهر الجرجاني قد غدت واضحة جلية. فقد ألبسها ثوبا جديدا يربطها بالتصوير الفني،والتذوق البلاغي، بعيدا عن القواعد الشكلية، والإعرابيّة من الرفع والنصب والجر والجزم، وتقديم الفعل على المفعول وتأخيره عنه، وتأخير الخبر عن المبتدأ، وتقديمه عليه وغير ذلك، بل هي فكرة إدراك العلاقات في النص الأدبي بمعناه العام،ولذلك تكشف هذه الفكرةعن معاني النحو التي يسعى إليها الإمام عبد القاهر، فهي فكرة المعاني الثانية في الأسلوب الأدبي، المعاني الخفية التي تحيط بدلالات النص الأدبي. بل أننا نلاحظ أن فكرة العلاقات بين أجزاء العبارة واضحة تمام الوضوح في ذهن الإمام عبد القاهر، وهي الوسيلة التي استخدمها الإمام في الكشف عن معاني النحو. وهي فكرة قد احسها عبد القاهر الجرجاني منذ القرن الخامس الهجري. وهي نفس الفكرة - كما يرى الدكتور محمد غنيمى هلال - التي تأثر بها فيما بعد أصحاب الفلسفة الجمالية من أمثال الفيلسوف «ديدرو» (ت١٧٨٤م) وغيره[٣٣].

لعبت فكرة إدراك العلاقات دورا واضحا عند الإمام عبد القاهر الجرجاني، لأن اللغة أصبحت عنده مجموعة من العلاقات، وليست مجموعة من الألفاظ فهو يقول: «واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، وينبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس، وإذا كان كذلك فبنا أن ننظر إلى التعليق فيها والبناء وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها ما معناه، وما محصوله، وإذا نظرنا في ذلك علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا، أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر أو تتبع الاسم اسما على أن يكون الثاني صفة

٣٣ المرجع السابق، ص ٢٩٣-٢٩٥

للأول أو تأكيدا له أو بدلا منه أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة أو حالا أو تميزا أو تتوخى في كلام هو لإثبات معنى أن يصير نفيا أو استفهاما أو تمنيا فتدخل في كلام هو لإثبات معنى أن يصير نفيا أو استفهاما ما أو تمنيا فتدخل عليها الحروف الموضوعة لذلك، أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطا في الآخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف - وعلى هذا القياس .وأن الكلم ترتيب في النطق، بسبب ترتيب معانيها في النفس، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتا وأصداء حروف لما وقع في ضمير وما هجس في خاطر أن يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يجعل لها أمكنة ومنازل، وأن يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك».[٣٤] فإننا نلاحظ أن الصدارة للروابط والعلاقات وليس للألفاظ، ومن هنا ينبع النظم وتكمن مكانته السامية «إذن فالمهم في اللغة ليس الألفاظ بل مجموع الروابط التي نقيمها بين الأشياء بفضل الأدوات اللغوية، وتلك الروابط هي المعاني التي نعبر عنها، ومن ثم كانت أهميتها وما لها من صدارة على الألفاظ»[٣٥].

تظهر - من هنا - العلاقات واضحة، بين أجزاء العبارة، وينكشف النقاب عنها، وتزول الشبهات، فانظر عندما يصرح الإمام عبد القاهر الجرجاني في وضوح إلى النظم لا يكون في الكلمة المفردة، إلا الكلمة المستخدمة في سياق نحوي ولغوي صحيح، فلا شك أنه يعني أن الألفاظ نستعملها لنشير بها إلى أشياء معروفة لدينا من قبل، واللفظة المفردة مجرد وسيلة من وسائل الإشارة لا أكثر ولا أقل، وإنما تجزل فائدتها عندما تكون في سياق لأنها تكون شحنة من العواطف الإنسانية والصور الذهنية، هذا بجانب المعنى العقلي المجرد، والأفكار التصورية.

لذلك نرى الإمام عبد القاهر يقول: « إن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضا إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد، وهذا علم شريف، وأصل عظيم، والدليل على ذلك أنا إن زعمنا أن الألفاظ التي هي أوضاع اللغة إنما وضعت ليعرف بها معانيها في أنفسها، لأدّى ذلك إلى ما لا يشك عاقل في استحالته، وهو أن يكونوا قد وضعوا للأجناس، الأسماء التي وضعوها لها لتعرفها بها حتى كأنهم لو لم يكونوا قالوا، رجل وفرس ودار: لما كان يكون لنا علم بمعانيها حتى لو لم يقولوا: فعل ويفعل، لما كنا نعرف

٣٤ الدلائل، ص٥١، ٥٢.

٣٥ النقد المنهجي عند العرب، د. محمد مندور، ص٣٣٥.

الخبر في نفسه، ومن أصله.ولو لم يكونوا قد قالوا: أفعل لما كنا نعرف الأمر من أصله ولا نجد في نفوسنا، حتى لو لم يكونوا قد وضعوا الحرف لكنا نجهل معانيها فلا نفيا ولا نهيا ولا استفهاما ولا استثناء، وكيف والمواضعة لا تكون ولا يتصور إلا على معلوم، فمحال أن يوضع اسم أو غير اسم لغير معلوم، ولأن المواضعة كالإشارة فكما أنك إذا قلت، خذ ذاك، لم تكن هذه الإشارة لتعرف السامع المشار إليه في نفسه ولكن لعلم أنه المقصود من بين سائر الأشياء التي تراها وتبصرها، وكذلك حكم اللفظ مع ما وضع له، ومن هذا الذي يشك أنا لم نعرف الرجل والفرس والضرب والقتل إلا من أساميها؟ لو كان لذلك مساغ في العقل لكان ينبغي إذا قيل: زيد، أن تعرف المسمى بهذا الاسم من غير أن تكون قد شاهدته أو ذكر لك صفته» ٣٦.

إذن فالألفاظ تستمد دلالتها من علاقاتها بالكلمات السابقة لها أو اللاحقة بها، وبما يمكن أن تكتسبه في مكانها التي وضعت فيه من إشاعات وإضافات جديدة. إذن فمسالة إدراك العلاقات تلعب دورا مهما في فكرة البلاغة وعلاقتها بالنحو، أي النحو البلاغي؛ لأن النحو يكشف عن تلك العلاقات ولعل خير مثال ـ في رأينا ـ يكشف عن مسالة إدراك العلاقات هذه، هو تحليله للآية الكريمة: « وقيل يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء أقلعي، وغيض الماء، وقضي الأمر واستوت على الجودي، وقيل بعدا للقوم الظالمين» ٣٧.

وسوف نرى، كيف استطاع الإمام عبد القاهر أن يدرك العلاقات بين أجزاء هذه الآية الكريمة، حتى سحرنا بأسلوبه وجذبنا بحديثه، وأغرانا بمنهجه وطريقته، فهو يربط ربطا دقيقا النص بأجزائه، ويبحث عن العلاقة بين هذه الأجزاء، كما يقف عند الدلالات الخفيّة من وراء النص القرآني.

ويرى الإمام، إنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة؟ وهكذا، إلى أن تستقر بها إلى آخرها، وأن الفضل تناتج ما بينها ، وحصل من مجموعها.إن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قل «ابلعي» واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها وكذلك فاعتبر سائر ما يليها وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض، ثم أمرت

٣٦ الدلائل، ص٣٤٠ - ٣٤١.

٣٧ سورة هود، ٤٤.

ثم في أن كان النداء بياء دون أي نحو. «يا أيتها الأرض» ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال ابلعي الماء، ثم أن اتبع نداء الأرض و أمرها بما هو شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل وغيض الماء فجاء الفعل على صيغة «فعل» الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر، وقدرة قادر، ثم كيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: « وقضي الأمر « ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو: «استوت على الجودي» ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة قيل. في الخاتمة بقيل في الفاتحة، أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتحرضك عند تصورها هيبة تحيط بالنفي من أقطارها تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟ ٣٨

فإننا نلاحظ أن عبد القاهر الجرجاني استطاع أن يدرك عدة علاقات ارتبطت بهذه الآية الكريمة، وهذه العلاقات هي سر العظمة في هذه الآية، حيث تكمن من ورائها دلالات خفية، وهذه الروابط والعلاقات يمكن أن ـ نلخصها في هذه المواضع :

١. النداء والأمر للأرض والسماء.
٢. صيغة النداء (بياء) دون (أي).
٣. إضافة الماء إلى الكاف.
٤. أن نوديت الأرض وأمرت بما يخصها، وكذلك السماء.
٥. استخدام البناء للمجهول في كلمة (وغيض الماء).
٦. التأكيد والتقرير في (وقضي الأمر).
٧. إضمار السفينة في (استوت على الجودي).
٨. المقابلة بين (قيل) في الفاتحة، و (قيل) في الخاتمة.

وهذه الخصائص كلها ليست كما تبدو مجرد قواعد نحوية صارمة ولكنها معان ومشاعر، وهي بتفاعلها مع البلاغة قد شاركت في نقل الصورة العامة التي تريد الآية تبليغها للناس بكل ما تنطوي عليه من إحساس وانفعال. ومن هذا المنطلق تجد أن هذا المنهج الذي اتخذه الإمام عبد القاهر في فكرة إدراك العلاقات هذه، يمثل نهجا جديدا، لقي مكانة من بعده، وخاصة فيالعصر الحديث لدى الأدباء والعلماء، حيث تلتقي فيه فلسفة اللغة بفلسفة الفن.» وهذا المنهج الذي يفسر القيمة في الأدب بما يكون بين اللغة من علا قات هو المنهج الذي تلتقي فيه فلسفة اللغة بفلسفة الفن، والذي يرى أن التباين في الصياغة لا يوجد إلا إذا يوجد التباين في الإحساس.» ٣٩.

٣٨ الدلائل، ص٤٧-٤٨.

٣٩ قضايا النقد الأدبي والبلاغة، د. محمد زكي العشماوي، ص٣٦٩ - ٣٧٠. القاهرة، سنة ١٩٦٧م.

رابعا: علاقة النحو بالبلاغة

لا شك أن عبد القاهر الجرجاني فتح باب التذوق البلاغي على مصراعيه للدارسين والمتذوقين، والأدباء المبدعين، وإنه انطلق بالنحو نحو مفهوم جديد، حيث امتزجت معه البلاغة العربية، وذلك من خلال علاقة النحو بالبلاغة، أو فكرة النحو البلاغي. حيث تجد النحو لم يكن عنده ذلك المفهوم القديم الشكلي الذي يخضع لقواعد شكلية لا بدّ منها، مثل الرفع والنصب والجر والجزم وغيرها. بل إنه ذلك النحو الجديد الذي ارتبط بفكرة عظيمة وهي فكرة النظم، وهذه الفكرة التي ترتبط بالدلالات النفسية العميقة، ومن ثم تجد فكرة النحو عنده انطلقت نحو التذوق والخلق الفني، فغدت بلاغة نحوية أو نحوا بلاغيًا، بعد أن كانت قواعد منطقية جافة.

« إنه لا يقصد بنظريته الجديدة إلى شيء من هذا، ولكنه يقصد إلى النحو البلاغي، أو البلاغة النحوية، وبذلك يكون أول عالم أخرج النحو من نطاق شكليته وجفافه، وسما به فوق الخلافات، وبعث فيه دفء اللذة الشعورية والعقلية معا، وأخضعه لفكرة النظم، وأخضع فكرة النظم إليه، وأصبح النظم الذي يرتبط بالنحو، أو النحو الذي يعود إليه النظم مباحث في الأسرار البلاغية، والنكات الفنية التي تدق في جاذبيتها وتحلق في تصويرها حتى تصل إلى أرفع مراقي البيان، وذلك هو الإعجاز الذي أذاب فيه الرجل العالم عصارة أيامه ولياليه».[٤٠]

ومن الصور البلاغية التي تدل على البلاغة النحوية، ولما وراءها من دلالات خفية لا يدركها الأديب إلا بعد التفكير والتعمق، هو تحليله لقوله تعالى: « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما؟ قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل»[٤١].

يوضح لك عبد القاهر الجرجاني تلك الدلالات الخفية الكامنة وراء هذه الآية فيقول: « ففيها حذف مفعول في أربعة مواضع إذ المعنى وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم، وامرأتين تذودان غنمهما، وقالتا لا نسقي غنمنا فسقى لهما غنمهما، ثم أنه لا يخفى على ذي بصر أنه ليس في ذلك كله إلا أن يترك ذكره ويؤتى بالفعل مطلقا وما ذلك إلا أن الغرض في أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقى، ومن المرأتين ذود، وأنهما قالتا: لا يكون منّا

٤٠ فكرة النظم بين وجوه الإعجاز، الدكتور فتحي عامر، ص٨١، القاهرة، عام ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة.

٤١ سورة القصص، آية ٢٣-، ٢٤.

سقي حتى يصدر الرعاء. وأنه موسى عليه السلام من بعد ذلك سقى. فأما ما كان المسقى أغناما أم إبلا أم غير ذلك فخارج عن الغرض، وموهم خلافه، وذلك أنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما: جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود غنم حتى لو كان مكان الغنم إبلا لم ينكر الذود كما أنك إذا قلت: ما لك تمنع أخاك؟ كنت منكر المنع لا من حيث هو منع، بل من حيث هو منع أخ فاعرفه تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول في هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت إلا لأن في حذفه، وترك ذكره فائدة جليلة وأن الغرض لا يصح على تركه»[٤٢].

وأنت لا تجد لحذف المفعول في هذا النحو من الروعة والحسن ما تجد لأن في حذفه وترك ذكره فائدة جليلة. وأن الغرض لا يصح إلا على تركه، فالسقي من الناس، والذود من المرأتين وقولهما: لا يكون منّا سقي، وسقى موسى لهما، يوحي لنا بالأفكار التالية:

١. «السقي من الناس» يوحي بالزحام الشديد على موارد الماء.

٢. «والذود من المرأتين» يشير إلى الحياء والضعف.

٣. «لا يكون منّا سقي» يفهم منه: الاحتشام والتريث والأناة حتى تحين الفرصة المناسبة.

٤. «وسقى موسى لهما» يدل على الشهامة والمروءة ونبل النفس.

ومن الأمثلة الجميلة التي تدل على تذوق الإمام عبد القاهر الجرجاني، وتصيده للدلالات الفنية التي تكمن وراء فكرة النحو البلاغي،أو توضح فكرة البلاغة النحوية أو النحو البلاغي؛ هي تحليله لقول طفيل الغنوي لبني جعفر بن كلاب:

جزالله عنا جعفرا حينأُزلقت

بنا نعلنا في الواطئين فزلت

أبوا أن يملُّونا ولو أنأُمنا

تلاقى الذي لاقوه منا لملت

هم خلطونا بالنفوس والجؤا

إلى حجرات أدفأت وأظلت

يذهب الإمام عبد القاهر قائلا: « فيها حذف مفعول مقصود قصده في أربعة مواضع قوله: لملت، وأدفأت، وأظلت: لأن الأصل « لملتنا والجؤنا إلى حجرات أدفأتنا وأظلتنا» إلا أن الحال على ما ذكرت لك من أنه في حد المتناهي حتى كأن لا قصد إلى المفعول، وكأن الفعل قد أبهم أمره، فلم يقصد به قصد

٤٢ دلائل الإعجاز، عبد القاهر، ص ١١٦ - ١١٧.

شيء يقع عليه كما يكون إذا قلت: قد مل فلان: تريد أن تقول: قد دخله الملال: من غير أن تخص شيئا بل تزيد على أن تجعل الملال من صفته وكما تقول: هذا بيت يدفئ ويظل. تريد أنه بهذه الصفة»[٤٣].

وإننا نلاحظ أن مسألة الحذف لا تأتي اعتباطا وإنما النكتة البلاغية هي التي توجب ذلك، وهكذا يتاح للقارئ التذوق السليم، وهضم الفكرة التي دفعت بها، تلك الدلالات الخفية وراء التعبير وأوضحتها.

لا يقف الإمام عبد القاهر الجرجاني عند هذا الحد بل يدفعنا إلى تحسين مواطن الذوق والجمال، فإنه لا يعطينا كل شيء، ولكنه يبين لنا الطريق السوي، ويدلنا به إلى هدفنا ومرادنا، بأسهل ما يمكن أن يكون فتلمس معنا إن شئت تعليقه على أبيات البحتري التي يقول فيها:

بلونا ضرائب من قد نرى

فما أن راينا لفتح ضريبا[٤٤]

هو المرء أبدت له الحادثات

غزما وشكيا ورأيا صليبا[٤٥]

تنقل في حلقي سؤدد

سماها مرجى وبأسا مهيبا

فكالسيف إن جئته صارخا

وكالبحر إن جئته مستثيبا

« فإذا رأيتها قد راقتك وكثرت عندك، ووجدت لها اهتزازا في نفسك، فعد فانظر في السبب، واستقصي في النظر، فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدم وأخر، وعرف ونكر، وخوف وأضمر، وأعاد وكرر، وتوخى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو فأصاب في ذلك كله ثم لطف موضع صوابه وأتى مأتى يوجب الفضيلة. أفلا ترى أن أول شيء يروقك منها قوله؟ هو المرء أبدت له الحادثات ثم قوله: « تنقل في حلقي سؤدد، بتنكير السؤدد وإضافة الخلقين إليه، ثم قوله: «فكالسيف « وعطفه بالفاء مع حذف المبتدأ لأن المعنى لا محالة فهو كالسيف ثم تكريره الكاف في قوله: « وكالبحر» ثم أن قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه. ثم أن أخرج من كل واحد من الشرطين حلا على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله: «صارخا» هناك «ومستثبتا» ههنا. لا نرى حسنا تنسبه إلى النظم ليس سببه ما عددت أو ما هو في حكم ما عددت فاعرف ذلك»[٤٦].

٤٣ المصدر السابق، ص١١٥.

٤٤ الضريب: النوع من الشيء والشكل جمعه ضرائب

٤٥ الوشيك: السريع، والصليب الشديد.

٤٦ المصدر السابق، ص، ٧٢-٧٣.

وأنت تلاحظ هنا أنه لم يكشف عن كل أسرار التعبير الجمالي من وراء الفكرة، وذلك لأنه يريد أن يشاركهالقارئ في ذلك ، إذ إنه يريد أن يخلق ذوقا رفيعا للمطلع والقارئ، حيث يجعله ينقب ويبحث حتى يدرك أسرار الخلق والإبداع بنفسه بعد إعطائه المفتاح، وإرشاده نحو الطريق الصحيح.

ولذا يرى الدكتور فتحي أحمد عامر: « أن عبد القاهر يغفل أحيانا عن أسرار الجمال في التعبير، ويكتفي بأن يذكر ألوانا مختلفة منه، ترتبط بالنحو، فهو يقول مثلا في شعر البحتري: « فأول ما يروق منها قوله: هو المرء أبدت له الحادثات» ولا يذكر لنا: لماذا راق؟. ويسند الميزة إلى التنكير في سؤدد، وإضافة الخلقين له، ولا يذكر لنا معنى فنيا في التنكير والإضافة، وما القيمة البلاغية في العطف بالفاء مع حذف المبتدأ؟ وما الذي يحس به الذوق الرائق في تكرار الكاف؟ ثم لماذا أخرج من كل واحد من الشرطين حالا على مثال ما أخرج من الآخر؟ لو أن عبد القاهر وقف وقفة متأنية عند بيان أسرار التعبير بوجه عام وأسرار التعبير القرآني بوجه خاص، لأحدث المعجزة نفسها...»[٤٧].

ومع هذا فإننا لا نرجح ما ذهب إليه الدكتور فتحي أحمد عامر، «أنه يغفل عن أسرار الجمال..» لأن ما ذهب إليه الإمام عبد القاهر الجرجاني في تحليله يعني إنه أراد أن يخلق ذوقا أدبيا فريدا للقارئ، فيجب أن يطلق العنان لذوق القارئ حتى يجعله ينقب بنفسه ليصل إلى مواطن الجمال والخلق والإبداع المرتبط بالدلالات الخفية فيما وراء الفكرة، وإننا نتساءل إذا فعل كل شيء فماذا يبقى للقارئ والباحث؟ وكيف يتعلم الباحث كيفية الوصول إلى أسرار الجمال، وإدراك العلاقات الخفية التي تكمن وراء العبارات؟.

إن عبد القاهر يعطينا المفتاح، ويرشدنا للطريق، ويترك لنا فرصة التعرف في الوصول إلى مرادنا وهدفنا، لأنه - كما قلنا - يريد أن يخلق مجتمعا أدبيا متذوقا، يعرف كيف يصل إلى مواضع أعماق الجمال المبدع، والإبداع الجمالي، الذي تتركه الفكرة من ورائها، وهكذا نجد أن الإمام عبد القاهر الجرجاني لا يقف عند هذا الحد بل يكثر من الأمثلة والشواهد التي توضح لنا الفكرة التي ذهب إليها في البلاغة النحوية أو النحو البلاغي، ويؤيد فكرته بالرجوع إلى الأمثلة، وأراء العلماء الأفذاذ مثل سيبويه، وشيخه الحسن محمد بن الحسن بن عبد الوارث، وغيرهم من العلماء الاجلاء الذين لعبوا دورا مهما في الحياة الأدبية، فهو مثلا يستشهد

٤٧ فكرة النظم بين وجوه الإعجاز، د. فتحي أحمد عامر، ص ٨٣ - ٨٤.

بأمثلة سيبويه ليرينا فكرته في أن ترك الذكر أفصح من الذكر أحيانا، بل أنه يذكر آراء شيوخه مستشهدا بها، ومؤكدا ما ذهب إليه.

فهو يقول: « وأنا أكتب لك أمثلة مما عرض فيه الحذف ثم أنبهك على صحة ما أشرت إليه، وأقيم الحجة من ذلك عليه، صاحب الكتاب (سيبويه):

اعتاد قلبك من ليلى عوائده

وهاج أهواءك المكنونة الطلل

ربعٌ قواء أذاع المعصراتُ به

وكلُّ حيران سارٍ ماءه خضل [48]

قال: أراد بذلك ربع قواء أو هو ربع. قال ومثله قول الآخر:

هل تعرف اليوم رسم الدار والطللا

كما عرفت بجفن الصيقل الخِللا [49]

دار لمروة إذ أهلي وأهلهم

بالكانسية [50] نرعى اللهو والغزل

كأنه قال: تلك دار. قال شيخنا رحمه الله: ولم يحل البيت الأول على أن الربع بدل من الطلل لأن الربع أكثر من الطلل والشيء يبدل مما هو مثله أو أكثر منه، فأما الشيء من أقل منه ففاسد لا يتصور. وهذه طريقة مستمرة لهم إذا ذكروا الديار والمنازل. وكما يضمرون المبتدأ فيرفعون فقد يضمرون الفعل فينصبون كبيت الكتابي أيضا:

ديار مَيّة إذ مي تساعفنا ولا يرى مثلها عجم ولا عرب

أنشده بنصب ديار على إضمار فعل كأنه قال: أذكر ديار مية» [51]

ويستفيد الإمام عبد القاهر -كما ترى - من كتب السابقين له، وهذا هو المنهج العلمي الصحيح الذي يجب أن يتبعه العالم الجليل، إذ كيف يتأتى له أن يضف جديدا دون الرجوع لهذه الكتب؟؟ ويترك-أحيانا- للباحث تصيد أسرار الجمال، والدلالات الكائنة وراء التعبير كما سبق أن أشرنا.ونجد أنه نجح في اختيار الأمثلة الجميلة الرائعة التي تدل على سلامة ذوقه، وقوة ذاكرته، وتعمقه في مجال الأدب والبلاغة والنحو، ومن ثم تتضح فكرته في النحو البلاغي وتعمّ.

ومن الأمثلة التي تشعرنا بعبقرية هذا الرجل ودقة تحليله، وإدراك أسرار الجمال، والعلاقات الخفية وراء العبارات، التي تكشف

48 أذاع المعصرات به: أنزلت ماءها بكثرة حتى ذهبت به وطمسته، والحيران السادي: هو المزن يجري ليلا، وقواء: لا أنيس به.

49 الخلة: بالكسر جفن المغشى بلأدم (المجلد) وقيل بطانة يغشى بها جفن السيف.

50 الكانسية: موضع.

51 الدلائل/ عبد القاهر، ص١٠٦ - ١٠٧.

عن سر البلاغة النحوية أو النحو البلاغي، موقفه من رواية الأصمعي.فهو يقول: « روي عن الأصمعي أنه قال: كنت أسير مع أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر وكانا يأتيان بشارا فيسلمان عليه بغاية الإعظام ثم يقولان: يا أبا معاذ ما أحدثت؟ فيخبرهما وينشدهما ويسألان ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتي وقت الزوال ثم ينصرفان، وأتياه يوما فقالا: ما هذه القصيدة التي أحدثتها في مسلم بن قتيبة؟ قال: هي التي بلغتكم، قالوا: بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب، قال: نعم بلغني أن مسلم بن قتيبة يتفاخر بالغريب فأحب أن أورد عليه ما لا يعرف، قالوا: فانشدناها يا أبا معاذ، فأنشدهما:

بكر صاحبي قبل الهجير إن ذلك النجاح في التبكير

حتى فرغ منها، فقال: خلف: لو قلت يا أبا معاذ مكان: (أن ذلك النجاح في التبكير)

× بكرا فالنجاح في التبكير×

كان أحسن، فقال بشار: إنما بنيتها إعرابية وحشية فقلت: إن ذلك النجاح في التبكير، كما تقول الأعراب البدويون، ولو قلت: (بكر فالنجاح..) كان هذا من كلام المولدين ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة، قال فقام خلف فقبل بين عينيه، فهل كان هذا القول من خلف والنقد على بشار إلا للطف المعنى في ذلك وخفائه؟ [52]

ثم يبدأ الإمام عبد القاهر الجرجاني في تحليل النص، فيرنا أنه الرجل المتذوق للفكرة، والذي يعرف يغوص وراء الغاية الجمالية، ليمسك بها، ويكشفها للباحث فهو يقول: « واعلم أن من شأن (إن) إذا جاءت على هذا الوجه أن تغني غناء الفاء العاطفة مثلا، وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمرا عجيبا فأنت ترى الكلام بها مستأنفا غير مستأنف مقطوعا موصولا معا، أفلا ترى أنك لو أسقطت (إن) من قوله: (إن ذلك النجاح في التبكير) لم تر الكلام يلتئم ولو رأيت الجملة الثانية لا تتصل بالأولى ولا تكون منها بسبيل حتى تجيء بالفاء فتقول: «بكرا صاحبي قبل الهجير× فذاك النجاح في التبكير»

ومثله قول بعض العرب:

فغنّها وهي لك الفداء

إن غناء الإبل الحُداء

فانظر إلى قوله: إن غناء الإبل الحداء، وإلى ملاءمته الكلام قبله وحسن تشبثه به وإلى حين تعطف الكلام الأول عليه، ثم انظر إذا تركت (إن) فقلت: فغنها وهي لك الفداء،

52 المصدر السابق، ص ١٨٣ - ١٨٤.

غناء الإبل الحداء، كيف تكون الصورة وكيف ينبوا أحد الكلامين عن الآخر وكيف يشئم هذا، ويروق ذاك حتى لا تجد حيلة في ائتلافهما حتى تجلب لهما الفاء فتقول: فغنها وهي لك الفداء فغناء الإبل الحداء، ثم تعلم أن ليست الألفة بينهما من جنس ما كان، وأن قد ذهبت الأنسة التي كنت تجد، والحسن الذي كنت ترى»[٥٣].

وللإمام عبد القاهر أيضا بعض الشواهد الجميلة التي توضّح فكرته في النحو البلاغي، وذلك موقفه من رواية عنبسة الفيل حيث يقول: « وروي عن عنبسة أنه قال: قدم ذو الرمة الكوفة فوقف ينشد الناس بالكناسة (موضع بالكوفة) قصيدته الحائية التي منها:

هي البرء والإسقام والهم والمنى
وموت الهوى في القلب مني المبرح
وكان الهوى بالنأي يمّحي فيَّمحي
وحبك عندي يستجدُّ ويربح
إذا غير النأي المحبين لميكد
رسيس الهوى من حب ميّة يبرح.

قال فلما انتهى إلى هذا البيت ناداه ابن شبرمة: يا غيلان أراه قد برح، قال: فشنق[٥٤] ناقته وجعل يتأخر بها ويتفكر ثم قال:

إذا غير النأي المحبين لم أجد
رسيس الهوى من حب مية يبرح

قال: فلما انصرفت حدثت أبي قال: أخطأ ابن شبرمة حين أنكر على ذي الرمة، وأخطأ ذو الرمة حين غير شعره لقول ابن شبرمة إنما هو كقول الله تعالى: «ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها». وإنما هو لم يرها ولم يكد»[٥٥].

ثم يذهب الإمام عبد القاهر بعد هذا ليوضح لنا السبب الذي أدى إلى هذه الشبهة وأثناء ذلك يرينا فنه وذوقه وتبحره في مجال الأدب، حيث نجد أمامنا عالما يعرف كيف يصل إلى الفكرة بأسلوب سهل ممتنع فهو يقول: « واعلم أن سبب الشبهة في ذلك أنه قد جرى في العرف أن يقال ما كان يفعل ولم يكد يفعل، في فعل قد فعل على معنى أنه لم يفعل إلا بعد الجهد وبعد أن كان بعيدا في الظن أن يفعله كقوله تعالى: (فذبحوها وما كادوا يفعلون). فلما كان مجيء النفي على هذا السبيل توهم ابن شبرمة أنه إذا قال: لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح، فقد زعم أن الهوى قد برح ووقع لذي الرمة مثل هذا الظن، وليس الأمر كالذي ظناه فإن الذي يقتضيه اللفظ إذا قيل:

٥٣ المصدر السابق، ص١٨١ - ١٨٢.
٥٤ شنق البعير - من باب نصر وضرب - شنقا، كفه بزمامه حتى الصق ذفراه بقادمة الرجل، وقيل رأسه وهو راكبه.
٥٥ المصدر السابق، ١٨٤-١٨٥.

لم يكد يفعل وما كاد يفعل أن يكون المراد أن الفعل لم يكن من أصله، ولا قارب أن يكون، ولا ظن أنه يكون، وكيف بالشك في ذلك وقد علمنا أن (كاد) موضوع لأن يدل على شدة قرب الفعل من الوقوع، وعلى أنه شارف الوجود، وإذا كان كذلك كان محالا أن يوجب نفيه وجود الفعل لأنه يؤدي إلى أن يوجب نفي مقاربة الفعل الموجود وجوده وأن يكون قولك: ما قارب أن يفعل، مقتضيا على البت أنه قد فعل، وإذ قد ثبت ذلك فمن سبيلك أن تنظر فمتى لم يكن المعنى على أنه قد كان هناك صورة تقتضي أن لا يكون الفعل وحال يبعد معها أن يكون ثم تغير الأمر كالذي تراه في قول الله تعالى: (فذبحوها وما كادوا يفعلون) .في أنه نفى معقب على إثبات، وأن ليس المعنى على أن رؤية كانت من بعد أن كادت لا تكون، ولكن المعنى على أن رؤيتها لا تقارب أن تكون فضلا عن أن تكون، ولو كان (لم يكد) يوجب وجود الفعل لكان هذا الكلام منهم محالا جاريا مجرى أن تقول: لم يرها ورآها فاعرفه»[٥٦].

يذكر لنا الإمام عبد القاهر النكتة الأدبية في هذا المجال، حتى يجذبنا لقوله، فليس الغرض هو ذكر الفكرة، وتدعيمها بالشواهد فقط، بل لابدّ من ذكر الفائدة التي نجنيها من مثل هذه المواقف الأدبية، وهي النتائج المستخلصة من الموضوع، ولذلك تجده يوضح لنا النكتة فيقول: « وههنا نكتة وهي أن (لم يكد) في الآية والبيت واقع في جواب إذا والماضي إذا وقع في جواب الشرط على هذا السبيل كان مستقبلا في المعنى، فإذا قلت: إذا خرجت لم أخرج، كنت قد نفيت خروجا فيما يستقبل، وإذا كان الأمر كذلك استحال أن يكون لمعنى في البيت أو الآية على أن الفعل قد كان لأنه يؤدي إلى أن يجيء بلم أفعل ماضيا صريحا في جواب الشرط فتقول: إذا خرجت لم أخرج أمس، وذلك محال، ومما يتضح فيه هذا المعنى قول الشاعر:

ديار لجهمة بالمنحنى
سقاهن مرتجز[٥٧] باكر
وراح عليهن ذو هيدب[٥٨]
ضعيف القوى ماؤه زاخر
إذا رام نهضا بها[٥٩] لم يكد
كذي الساق أخطأها الجابر[٦٠].

٥٦ المصدر السابق، ص ١٨٥.
٥٧ ارتجز الرعد: تدارك صوته وتتابع المراد السحاب، ويقال ترجز السحاب إذا تحرك بطيئا لكثرة مائه. والباكر: صاحب البكور ومن يأتي غدوة.
٥٨ الهيدب: ذيل السحاب المتدلي. زخر البحر كمنع طما وتملأ والوادي مد جدا وارتفع.
٥٩ بها أي قوى إذا أراد أن ينهض بقواه لم يكد ينهض.
٦٠ المصدر السابق، ص١٨٣ - ١٨٤.

وهكذا ترى كيف يبينالإمام عبد القاهر الجرجاني فكرة البلاغة النحوية أو النحو البلاغي، ثم يربطها بفكرة النظم التي تنبع من أعماق النحو العربي وتتصل به اتصالا وثيقا، بل إنه عن طريقها يفهم الأدب فهما جديدا يقوم على التذوق السليم. ولا شك إن فكرة البلاغة النحوية أو النحو البلاغي فكرة شائقة وجديدة، تحتاج إلى بحث وتنقيب واجتهاد، إن النحو العربي يجب أن ينطلق من هنا ويسير على هذا الأساس العلمي المدروس الذي أتى به الإمام عبد القاهر الجرجاني، فهو بلا شك تجديد في مجال تدريس النحو العربي، وهذا الموضع يحتاج إلى من يبحث فيه وينقب، حتى يقدم للتراث العربي خدمة جلية ومفيدة لإحياء النحو العربي بطريقة جميلة وسهلة غير معقدة، ولعله بذلك يضيف إلى ما أضافه عبد القاهر - في هذا المجال الواسع ـــ منذ القرن الخامس الهجري.

خامسا: علاقة النظم بالنحو

إن العلاقة بين النظم والنحو - بعد الذي ذكرناه آنفا - قد غدت علاقة وطيدة واضحة المعالم. كما أننا نرى أن الإمام عبد القاهر في مواضع كثيرة من كتبه يرجع كثيرا من المسائل الأدبية لعلم النحو وعلاقته بالنظم، إذن فالنظم أصبح لا ينفك عن النحو، لأنه الأصل فيه. ولأن فكرته منذ أن بدأت، كانت نحوية خالصة تماما. ولعلك تدرك هذا المفهوم عندما يوضح لنا الإمام عبد القاهر هذه الصلة العميقة بين الطرفين حيث يقول: « واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق، وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارج، وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاءني زيد مسرعا، وجاءني يسرع، وجاءني وهو مسرع، أو هو يسرع، وجاءني قد أسرع، وجاءني وقد أسرع، فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له. وينظر في الحروف التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه، نحو: أن يجيء بما في نفي الحال، وبلا إذا أراد نفي الاستقبال، وبأن فيما يترجح بين أن يكون وأن

لا يكون، و بإذا فيما علم أنه كائن. وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من موضع، ثم وموضع «أو» من موضع أم، وموضع لكن من موضع بل. ويتصرف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار والإظهار، فيضع كلا من ذلك مكانه. ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له»[٦١].

فالنظم عنده معاني النحو، ودلالاته، وإدراك العلاقات بين أجزاء النص، وتلك المعاني الخفية أو المعاني الثانية كما ترى، ومن هذا المنطلق تجده يكرر هذا المعنى ويؤكده في كثير من الأحيان. يؤكده لأنه يرى أنه الطريق الأمثل، الواضح الصحيح الذي ينبغي أن تفهم عن طريقه النص الأدبي. لذلك فهو يذهب في موضع آخر مؤكدا لهذا الطريق الذي أقره منذ اللحظة الأولى، لأنه « هو السبيل فليست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم،ويدخل تحت هذا الاسم، ألا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي لـــه، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا أنت تجد مرجع تلك الصحة، وذلك الفساد، وتلك المزية، وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويصل بباب من أبوابه»[٦٢].

لا يتركنا الإمام عبد القاهر عند هذا الحد، بل يضرب لنا بعض الأمثلة، ليرينا إلى أي حد يرتبط النظم بالنحو ومعانيه المختلفة من خلال التراكيب المتنوعة الكثيرة. بل أنه يرى أن فساد النظم، وسوء التأليف إنما ينشئ من عدم توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم، فهو يقول: ويضرب لك أمثلة في نحو قول الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مُمَلَّكا

أبو أمّه حيٌّ أبوه يقاربه[٦٣]

وقول المتنبئ:

ولذا اسم أغطيةِ العيون جفونُها

من أنها عملَ السيوفِ عوامِلُ[٦٤].

٦١ المصدر السابق، ص٧٠.

٦٢ المصدر السابق، ص٦٧.

٦٣ أي ما مثل الممدوح في الناس حي يقاربه في فضائله إلا صاحب ملك أبو أمه، أي أم الملك أبوه، أي أبو هذا الممدوح. وحاصل المعنى أنه لا يشبهه إلا ابن أخته الذي هو «هشام» لأن الممدوح هو «إبراهيم» بن هشام بن عبد الملك بن مروان» فالتعقيد ظاهر.

٦٤ الجفن: غمد السيف، يعلل تسميته جفون العيون بأنها تعمل في القلوب عمل السيف، نوع من التعقيد أيضا.

وقوله:

الطيبُ أنت إذا أصابك طيبه

والماءَ أنت إذا اغتسلت الغاسل[٦٥]

وقوله:

وفاؤكما كالرَّبع أشجاه طاسمه

بأن تُسعدا والدمع أشفاه ساجمه[٦٦]

ثم يقول الإمام عبد القاهر: «وفي نظائر ذلك مما وصفوه بفساد النظم وعابوه من جهة سوء التأليف، إن الفساد والخلل كانا من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير الصواب، وضع في تقديم أو تأخير أو حذف وإضمار أو غير ذلك ما ليس له أن يصنعه، وما لا يسوغ ولا يصح على أصول هذا العلم وإذا ثبت أن سبب فساد النظام واختلاله أن لا يعمل بقوانين هذا الشأن ثبت أن سبب صحته أن يعمل عليها. ثم إذا ثبت أن مستنبط صحته وفساده من هذا العلم ثبت أن الحكم كذلك في مزيته والفضيلة التي تعرض فيه. وإذا ثبت جميع ذلك ثبت أن ليس هو شيئا غير توخي معاني هذا العلم وأحكامه فيما بين الكلم والله الموفق للصواب»[٦٧].

إن فساد النظم، كان سببه، في عدم توخي الشاعر معاني النحو فيما بين الكلم، فإنه قدّم وحذف أو أضمر ، ولكن كان هذا في غير موضعه، ومكانه الصحيح. إذا هو فعل ما ليس له أن يصنعه، وما لا يسوغه له قوانين هذا العلم.

ثم إننا نلاحظ في كثير من المواضع، أن الإمام عبد القاهر الجرجاني قد ردّ النظم إلى المعاني الإضافية، أو المعاني الثانية، أو معنى المعنى، أو المعاني التي تكمن من وراء التعبير ودلالاته. وهو يقصد بذلك المعاني الخفية التي تكون وراء النص، والتي لا تظهر إلا لذوي النظر والبصيرة الثاقبة العميقة، لهذا فهو يقول: « إنك إذا قلت: هو كثير رماد القدر، أو قلت: طويل النجاد، أو قلت: في المرأة نؤوم الضحى، فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا هو غرضك

٦٥ الماء منصوب بفعل محذوف لأن الصلة لا تعمل فيما قبلها، وبعضهم يجعله مبتدأ يعود عليه ضمير محذوف من الصلة.

٦٦ طاسمة: دراسة، وأشجاه: اسم تفضيل، وتسعدا: من الإسعاد وهو المساعدة على البكاء، واشجاه: اسم تفضيل، وساجمة: سائلة ساكبة - المعنى: وفاؤكما لي أيها الصاحبان بإسعادي مثل الربع أده شجوا أي ادعاه إلى الحزن ما درس منه وعفا وكالدمع أفعله في الشفاء ما جرى من وسجم، لا ما احتبس، فمتى قل إسعادكما لي وضعف اشتد حزني وقوى، ومتى زاد وكثر خط الوجد ونقص.

٦٧ المصدر السابق، ص ٦٨ - ٦٩.

كمعرفتك من كثير رماد القدر، أنه مضياف، ومن طويل النجاد أنه طويل القامة، ومن نؤوم الضحى في المرأة أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها... وكذلك تعلم من قوله: بلغني أنك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، أنه أراد التردد في أمر البيعة، واختلاف العزم في الفعل.. وإذا قد عرفت هذه الجملة، فها هنا عبارة مختصرة وهي أن تقول المعنى، ومعنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر كالذي فسرت لك» ٦٨.

إن المعاني الثانية، أو المعاني الخفية أو معنى المعنى - كما ترى - هي المزية والأساس في فكرة النظم: وقد جعلها الإمام عبد القاهر الجرجاني في كثير من الأحيان هي الأساس والركيزة للمعاني الأولى، التي تكشف النقاب عنها، فهو يقول: « ومثل لما حسن مأخذه ودق مسلكه ولطفت إشارته، وأن المعرض وما في معناه ليس هو اللفظ المنطوق به ولكن معنى اللفظ الذي دللت به على المعنى الثاني كمعنى قوله: ×فإني جبان الكلب مهزول الفيصل× [٦٩]».الذي هو دليل على أنه مضياف، فالمعاني الأولى المفهومة من أنفس الألفاظ هي المعارض والوشى والحلى وأشباه ذلك، والمعاني الثواني التي يومأ إليها بتلك المعاني هي التي تكسي تلك المعارض، وتزين بذلك الوشي والحلي» [٧٠].

ويرى الدكتور شوقي ضيف: « أن الإمام عبد القاهر استطاع في الدلائل أن يفسر نظرية النظم تفسيرا ردّها فيه إلى المعاني الثانية أو كما قلنا إلى المعاني الإضافية التي تلتمس في ترتيب الكلام حسب مضامينه ودلالاته في النفس، وهي معان ترجع إلى الإسناد وخصائص مختلفة في المسند إليه والمسند، وفي أضرب الخبر، وفي متعلقات الفعل من مفعولات وأحوال، وفي الفصل بين الجمل والوصل، وفي القصر وفي الإيجاز والإطناب وهي نفسها الأبواب التي ألف منها من خلفوه علم المعاني» [٧١].

ومن هنا جاء اهتمام الإمام عبد القاهر على جانب الدلالات الخفية أو المعاني الثانية لأنها هي الركيزة الأساسية لفكرة النظم عنده، والتي استطاع أن يستخلص عن طريقها فكرته المتكاملة هذه، فالدلالات الخفية عنده، طالما ارتبطت بتوخي معاني النحو وأحكامه، وما يتصل به من التراكيب والدلالات المختلفة، فالإمام عبد القاهر يري

٦٨ المصدر السبق، ص١٧٧.

٦٩ أول البيت: «وما يك في من عيب فإني».

٧٠ المصدر السابق، ص١٧٨.

٧١ البلاغة تطور وتاريخ، الدكتور شوقي ضيف، ص١٨٩، دار المعارف، مصر، عام ١٩٦٥م.

دائما انه لا معنى للنظم غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم، واستخلاص المعاني الخفية. ففكرة «الابريسم « التي يستقلها الأدباء في فكرة التشبيه أو المحاكاة، لا يمكن أن تكون من الدقة والإحكام بمكانة فكرة النظم المحكمة المرتبطة بمعاني النحو، والتي تقوم على التذوق والتعمق في الأساليب المختلفة.فهو يقول: « و إنا لنرى أن في الناس من إذا رأى أنه يجري في القياس وضرب المثل أن تشبيه الكلم في ضم بعضها إلى بعض بضم غزل الابريسم بعضه إلى بعض ورأى أن الذي ينسج الديباج ويعمل النقش والوشي لا يصنع بالابريسم الذي ينسج منه غير أن يضم بعضه إلى بعض، ويتخير للإصباغ المختلفة المواقع التي يعلم أنه إذا أوقعها فيها حدث له في نسجه ما يريد من النقش والصورة - جرى في ظنه أن حال الكلم في ضم بعضها إلى بعض، وفي تخير المواقع لها حال خيوط الابريسم سواء، ورأيت كلامه كلام من لا يعلم أنه لا يكون الضم فيها ضما، ولا الموقع موقعا حتى يكون قد توخى فيها معاني النحو» [٧٢].

ثم يذهب الإمام عبد القاهر الجرجاني لذكر الأمثلة والشواهد، حتى يقنعنا ويجعلنا نوافقه على فكرته هذه فهو يقول: « وإنك إن عمدت إلى ألفاظ فجعلت تتبع بعضها بعضا من غير أن تتوخى فيها معاني النحو لم تكن صنعت شيئا تدعي به مؤلفا، وتشبه معه بمن عمل نسجا أو صنع على الجملة صنيعا، ولم يتصور أن تكون قد تخيرت لها المواقع ... مثال ذلك أنك إن قدرت في بيت أبي تمام:

لعاب الأفاعي القاتلات لعابه وأرى الجني أشتارته أيد عواسل [٧٣].

إن « لعاب الأفاعي « مبتدأ و «لعاب « خبر كما يوهمه الظاهر، أفسدت عليه كلامه وأبطلت الصورة التي أرادها فيه، وذلك أن الغرض أن يشبه مداده بأرى الجني على معنى أنه إذا كتب في العطايا والصلات أوصل به إلى النفوس ما تحلو مذاقته عندها، وأدخل السرور واللذة عليها، وهذا المعنى إنما يكون إذا كان لعابه مبتدأ ولعاب الأفاعي خبرا. فأما تقديرك أن يكون « لعاب الأفاعي « مبتدأ و» لعابه « خبر فيبطل ذلك ويمنع منه البتّة

٧٢ الدلائل، ص٢٤٠.

٧٣ أرى معطوف على لعاب الأفاعي أي أن مداده يشبه لعاب الأفاعي في السوء ويشبه الرى في النفع. والأرى: مالزق بأسفل القدر والعسل أو ما تجمعه النحل في أجوافها ثم تلفظه وما لزق من العسل في جوف العسالة. والجنى: العسل، والعاسل مشتار العسل من موضعه. والبيت من قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الملك الزيات، وقبل هذا البيت:

لك القلم الأعلى الذي بشباته تصاب من الأمر الكلي والمفاصل.

والشباة: إبرة الثوب، وحد كل شيء.

ويخرج بالكلام إلى ما لا يجوز أو يكون مرادا في مثل غرض أبي تمام وهو أن يكون أراد أن يشبه لعاب الأفاعي بالمداد، ويشبه كذلك الأرى به، فلو كان حال الكلم في ضم بعضها إلى بعض كحال غزل الابريسم لكان ينبغي أن تتغير الصورة الحاصلة من نظم كلم حتى تزال عن موقعها كما لا تتغير الصورة الحادثة عن غزل الابريسم بعضه إلى بعض حتى تزال الخيوط عن مواضعها» [٧٤]. فهذا تحليل نفسي أدبي يوضّح تلك الدلالات التي تكمن وراء العلاقات، والمعاني الخفية ، والتي تبين لك الفرق بين موضع وموضع، وصورة وأخرى حتى لا يختلط عليك الأمر.

الخاتمة

ومن هنا، نلاحظ أن الدلالات الإضافية أو المعاني الثانية، هي دائما مرتبطة في مخيلة الإمام عبد القاهر الجرجاني - في كثير من الأحيان - بتوخي معاني النحو وأحكامه.كما إننا نلاحظ أن هذه المعاني النحوية مرتبطة بالبلاغة العربية ارتباطا وثيق الصلة، ومن هذا المنطلق فإن فكرة النظم وعلاقته بالبلاغة النحوية أو النحو البلاغي، غدت فكرة جديدة يجب أن يتنبه إليها الأدباء عامة، والنحاة خاصة، لأنها في الواقع فكرة عميقة تساعد في إحياء النحو العربي على أسس علمية وجمالية وذوقية، يستطيع الجيل الجديد أن يتقبلها بكل ارتياح، وذلك لأن قواعد النحو المنطقية الجافة، يجد فيها الجيل الجديد مكانا للتعقيد والجفاف الأدبي، فكان لابدّ من طريقة أخرى جديدة تتلاءم مع ذوق العصر، ومجريات الحياة الجديدة. وأعتقد أن الطريقة والفكرة التي أتى بها الإمام عبد القاهر الجرجاني في مجال النحو البلاغي هي الفكرة المثلى التي تتلاءم مع مجريات العصر الحديث، والتقدم العلمي الذي ساده، وهي فكرة قد حرص الأوربيون على استخدامها في مجال اللغويات، واستفادوا منها كثيرا في تطوير علم اللغة أمثال: «دي سو سير»، و «ماييه» وغيرهما. لهذا يشير الدكتور محمد مندور قائلا: « مذهب الإمامعبد القاهر هو أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوروبا لأيامنا هذه، وهو مذهب العالم السوسري الثبت فردناند دي سوسير [٧٥] ».إذن فلماذا لا نستقل هذه الطريقة الجديدة في إحياء النحو العربي ونحن أصاحبها، وأحق بها من غيرنا.؟.

٧٤ المصدر السابق، ص٢٣٩.

٧٥ النقد المنهجي عند العرب،الدكتور محمد مندور، ص٣٣٤، القاهرة، الناشر مكتبة النهضة المصرية، مطبعة الفكر، عام١٩٤٨م.

فهرس المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

١. الإمام عبد القاهر الجرجاني حياته ومصادر ثقافته، الدكتور نصر الدين إبراهيم أحمد حسين، الطبعة الأولى، دار الفتح، المنصورة، سنة ١٩٩٣م.

٢. البلاغة تطور وتاريخ، الدكتور شوقي ضيف، ص١٨٩، دار المعارف، مصر، عام ١٩٦٥م.

٣. البيان والتبين، الجاحظ، ج١، تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبعة القاهرة، ١٣٦٧هـ.

٤. تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، الأستاذ أحمد مصطفى المراغي، الطبعة الأولى، سنة ١٩٥٠م.

٥. الخطابة، أرسطو طاليس، تحقيق عبد الرحمن بدوي، القاهرة ١٩٥٩م، مطبعة لجنة التأليف.

٦. الخصائص لابن جني، تحقيق محمد علي النجار،بيروت، دار الهدى للطباعة والنشر ،الطبعة الثانية،عام ١٩٤٣م.

٧. دلائل الإعجاز في علم المعاني، الإمام عبد القاهر الجرجاني، تصحيح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، علق عليه السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، عام١٤١٩ه -١٩٩٨م.

٨. دمية القصر، الباخرزي، نزهة الباء، ابن الأنباري، عام ١٩٧٨م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مطبعة الناشر الجامعي.

٩. عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، الدكتور أحمد مطلوب، بيروت-لبنان، عام ١٣٩٣ه-١٩٧٣م.

١٠. عبد القاهر الجرجاني جهوده في البلاغة العربية/ د. أحمد أحمد بدوي، القاهرة، الناشر مكتبة مصر، الطبعة الثانية، مطابع كوستا تسوماس وشركاته.

١١. فن الشعر، أرسطو طاليس، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت لبنان، ط٢،سنة ١٩٧٣م.

١٢. ١فكرة النظم بين وجوه الإعجاز،الدكتور فتحي عامر، القاهرة، عام ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة.

١٣. قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، الدكتور محمد زكي العشماوي، القاهرة، الطبعة الثالث عام

١٩٧٨م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مطبعة الناشر الجامعي.

١٤. قضايا النقد الأدبي والبلاغة، د. محمد زكي العشماوي، القاهرة، سنة ١٩٦٧م.

١٥. الكتاب، سيبويه، طبعة القاهرة، تحقيق عبد السلام هارون، عام ١٩٧٧م، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٦. معجم الأدباء، ياقوت الحموي، الطبعة الأخيرة، مكتبة البابي الحلبي وشركاه بمصر، راجعته وزارة المعارف العمومية، الدكتور أحمد فريد رفاعي.

١٧. النقد الأدبي الحديث/ د. محمد غنيمي هلال، دار المعارف والعودة، بيروت، مطابع المتنبي، عام ١٩٧٣م.

١٨. النقد التحليلي عند عبد القاهر، الدكتور أحمد عبد السيد الصاوي، الإسكندرية، عام ١٩٧٩م،الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٩. النقد المنهجي عند العرب،الدكتور محمد مندور، القاهرة، الناشر مكتبة النهضة المصرية، مطبعة الفكر، عام١٩٤٨م.